

# دراسات في مصادر تاريخ مصر في العصر العثماني

(١)

## دراسة نصية لكتاب هز القحوف في شرح قصيدة

أبي شادوف

بقلم

الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

عنوان الكتاب كاملا : هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف . ( جزءان في مجلد واحد ) .

اسم شارح القصيدة : يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشريفي

اسم ناظم القصيدة : « أبو شادوف » شاعر شعبي مجهول .

تاريخ مصر في العصر العثماني — الملوكي ، مازال ميدانا خصبا للدراسة الجادة لموضع تقويم صحيح له ، من واقع مصادره الأصلية المبعثرة في أماكن متعددة ، ومن بين هذه المصادر الكتابات للمعاصرة التي واكبت بعض فترات هذا التاريخ ، وسجلت أحداثه وملاحمه ، ولم تدرس بعد الدراسة التاريخية للتخصص .

والكتاب موضوع هذه الدراسة النصية ، خاص بالريف المصري وأحوال الفلاح في القرن السابع عشر للميلاد ( ١١ / ١٧ م ) ، حظى بقدر قليل من العناية من غير التخصصين — وعلى قلة هذا التقدر فقد كان في معظمه ، غير دقيق ، فلم يستطع أن يقوم ما في الكتاب من أفكار ، وأن يدرس ما وراء هذه الأفكار من حقائق ، تاريخية واقتصادية واجتماعية ، وإنما درجت الدراسات السريعة غير المتخصصة التي تعرضت للكتاب إلى تفسير هدف الشارح ، وإيضاح أنه لم يكن

يقصد سوى تحقير الفلاح ، والخط من شأنه (١) ، وإزاء هذه النظرة السطحية للكتاب صدرت بعض طبعاته تحمل عناوين فسكاهية (٢) ووسط هذه التفسيرات غير العلمية أسوء فهم هذا المصدر ، ولم تجسد الحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية التي تضمنها العناية الجديرة بها .

ولذا وجب إعادة النظر إلى هذا المصدر من مصادرنا التاريخية ، وتقويم ما فيه من حقائق وأفكار تقويعا عليها ، وهذه الدراسة النصية التي تقدمها ، هدفها الأول التنبيه إلى أهمية هذا الكتاب ، وتصحيح بعض الأفكار الخاطئة التي شاعت عنه ، ولذا فإنها اعتمدت أساساً على نصوص من الكتاب نفسه ، حتى لا ندع مجالاً للإسراف غير العلمي في الحديث عن هذا المصدر .

(١) كتب عنه كل من ، محمد عبد النبي حسن في كتابه « الفلاح في الأدب العربي » الممدد ١٢٨ للمكتبة الثقافية ، ١٥ مارس سنة ١٩٦٥ ، وحسن محسب في كتابه « قضية الفلاح في القصة المصرية » الممدد ٢٥٩ للمكتبة الثقافية ، ١٥ يناير سنة ١٩٧١ ، عبد الجليل حسن ، في مجلة الكتاب أغسطس ١٩٦٤ ، الممدد ، ٤١ ومقالة جيد وفيه بعض الأوصاف للكتاب .

(٢) طبع الكتاب في مطبعة بولاق مرتين  $\frac{١٢٧٤}{١٨٥٧}$  ،  $\frac{١٣٠٨}{١٨٩٠}$  ، ثم طب - ح بالمطبعة السعدية  $\frac{١٢٨٩}{١٨٧٢}$  وطبع بالمطبعة المحمودية بمصر بدون تاريخ تحت عنوان :

نكت وفكاهة وأدب المعروف بهز القحوف كما ورد في نهاية طبعة المطبعة السعدية « طبع هذا الكتاب للنظوم في سلك كتب الفكاهة بين الأصحاب » وصدر له تنقيح تحت اسم « قريتنا المصرية قبل الثورة » سنة ١٩٦٣ ، إعداد محمد قنديل البق - لي وكتب عنه أحمد أمين في كتابه « قاموس الماديات والتقاليد » وتوجد من هز القحوف نسخ عديدة بدار الكتب تحت أرقام ٢٧٦١ إلى ٢٧٦٤ ، ٤٣٣٥ ، ٣٠٨٦ ، ٥٠٨٤ أدب كما توجد منه نسخة مخطوطة بالمكتبة النيمورية ( أدب ٧٨٣ ) وهذه النسخة مختلفة عن النسخ للطبوعة لأنها تبدأ بالجزء الثاني الخاص بشرح القصيدة ووجود الكتاب تحت فن أدب دليل على عدم التنبيه لأهميته التاريخية .

والمنهج الذى اتبع فى هذه الدراسة هو :

أولاً : التعريف بناظم القصيدة التى قام عليها الكتاب ، والظروف التى دفعته إلى الإعراب عما كان يدور بخلد أبناء طبقته ، نتيجة للعظم التى أحاطت بهذه الطبقة .

ثانياً : التعريف بشارح القصيدة ، والظروف التى دفعته إلى الأقدام على وضع شرحه هذا .

ثالثاً : دراسة الأنكار التى تضمنها نص القصيدة ، دراسة تاريخية .

رابعاً : دور الشارح فى إيضاح الحقائق التى ذكرها الناظم فى قصيدته ، وتصويره للوضع الاقتصادى والاجتماعى للريف المصرى ، فى الفترة التى عاصرها  
خامساً : وضع تقويم للكتاب كمصدر تاريخى ، اقتصادى ، اجتماعى وأهميته لدراسة هذه الفروع .

وعند معالجة النقطة الأولى من هذه الدراسة ، والخاصة بناظم القصيدة ، فإن ذلك يتطلب أولاً ، معالجة الظروف التى دفعت به إلى عمله هذا والتى كانت سبباً فى تخليد اسمه مهما اختلف حول حقيقة .

ويجب أن نشير إلى أن القصيدة موضوع هذا الكتاب — كما يفهم من نصها لم توضع إلا بعد أن استقر نظام الالتزام فى العصر العثماني ، وأصبح هو الأسلوب الأمثل الذى ارتضته الحكومة لإدارة الأرض ، وإحكام العلاقة بين الفلاحين والإدارة عن طريق للترمين كوسطاء بينها وبين أهل الريف ، إذ أن العثمانيين ، لم يتخذوا من هذا النظام — بصورته التى عرف بها منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر أسلوباً لإدارة الأرض ، التى أدبرت منذ بداية الحكم العثماني وإلى سنة ١٦٥٨/١٠٦٩م بنظام المقاطعات ، أو ما كان يسمى بالأمانات لسكر منها مفتش ليشرف ويحدد الضرائب على الأرض القابلة للزراعة ، وحمل كل من هؤلاء المفتشين لقب « أمين » أو « آندى » وكان قانون نامه مصر سنة ١٨٣١/١٥٢٤م قد أقر هذا النظام ، ولكن هذا النظام لم يكن فى حقيقة الأمر هو النظام الأمثل لإدارة الأرض لأنه حمل فى طياته عوامل فشله ، فمجز المفتشين المختصين ، وعدم أحكامهم الرقابة على

مناطق مقاطعاتهم ، واتباعهم أساليب غير مشروعة لزيادة متحصلاتهم وتمييزهم وكلاء لهم تصفوا في معاملتهم للفلاحين ، أثبتت هذه الأمور جميعها عدم إمكانية إدارة الأرض بهذا الأسلوب (١) .

وفي سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٤٣م أعاد مقصود باشا تنظيم المالية المصرية وانشأ ديوان الروزنامجة لأحكام الرقابة على أموال الخزانة ، وطور نظام الأمانات ، ولكن تطور الأحداث أثبتت للإدارة أنه لا بد من بديل لنظام الأمانات يحكم قبضتها في جباية الأموال الأميرية من الفلاحين ، فاهتدت إلى نظام الالتزام الذي يحمل أول دفتر منظم له بديوان الروزنامة سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م (٢) .

وإذا كان نظام الالتزام بما وضع له من قواعد وأسس محددة ومضبوطة ، أصبح وسيلة ناجحة لإدارة الأرض ، وضمن للإدارة جباية الأموال المقررة بمختلف أنواعها ، إلا أن هذا النجاح كان لأمد غير طويل ، فسرعان ما أعلن هذا النظام إفلاسه وكثرت عمليات إسقاط الالتزامات ( أى التنازل عنها ) بصورة مزعجة ، فاضطرت الروزنامة إلى إنشاء سجلات خاصة بعمليات الإسقاط ، تسمى «سجلات إسقاط القرى» ويحمل السجل الأول منها تاريخ سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٨م (٣) ، ومنذ ذلك التاريخ بدأت فئة التجار تدخل ميدان الالتزام وتضارب بالأرض ساعدها على ذلك رأس المال الضخم الذي توفر لدى فئة منها ، وخير مثال لذلك محمد الدادة الشرايبي ،

---

١ — مجلة المجلة، الممدد ١٥٨ فبراير سنة ١٩٧٠ «العلاقات بين القاهرة وإستانبول أثناء الحكم العثماني لمصر من القرن ١٦ حتى القرن ١٨» بقلم روبر مونتزان ترجمة ، زهير الشايب .

Stanford J. Shaw, The Financial and Administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798. Pp 19 - 26.

٢ — دار المحفوظات العمومية بالقلمة ، دفتر ١ / التزام ، مخزن (١) تركي .

٣ — توجد هذه السجلات بأرشيف المحكمة الشرعية بالشهر المقارى وعددها ٤٩ سجلا ، من الحجم المتوسط .

جوابه قائم من بعده ، الذى تسجل « سجلات إعطاء القرى » فى كل صفحة من صفحاتها شراءه التزامات عديدة من الامراء للمالك وبعض أفراد الأوجاقات ، ومالكهم وبذلك أصبح نظام الالتزام مشكلة تهدد الإدارة ذاتها ، بالإضافة إلى إرهابه كاهل أهل الريف ، وكان لابد من إيجاد نظام بديل له ، ولكن الأحداث التى مرت بها مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر لم تمكن الإدارة — التى انتابها الضعف — من البحث عن نظام بديل ، وجاء ذلك على يد محمد على فى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م بإحلاله نظام الإحتكار محل نظام الالتزام. وتوجد الإشارة إلى أن مشاركة عدد كبير من أدوات الإدارة كأعوان للملتزم مثل اللشد ، الصراف أو المباشر ، الشاهد ، شيخ البلد ، الكاشف ، الخولى ، فى الإشراف على الأرض وجباية الأموال المقررة عليها أرهق الفلاح للمصرى ، وزاد من أهوائه ، فشكل من هؤلاء الموظفين حقوق وعادات ، لابد للفلاح أن يؤديها فى مواعيدها المحددة . وإلا لحقه المذاب حتى أصبح لسانه يلهج دائماً بمبارات « مال السلطان » و « عادات الكشاف » و « نزلة الصراف » و « العونة » و « الوجبة » وغير ذلك من المبارات التى تدل على الخوف الذى أصبح يسيطر عليه ، وسوء الحال الذى حل به ، والظلم الذى لحقه (\*) .

---

(\*) من الطريف أن نذكر مثالا واحداً ، للعادات التى كانت تقدمها القرى لأجهزة الإدارة فى سجل الترابيع رقم ١٦٠٥ المحفوظ بدار المحفوظات الخاص بولاية الشرقية سجل المال الخاص بكل عادة من العادات المقررة على قرية منية عامر كالآتى :

وكان لابد من صوت يلو مبرأ عن الظلم والحرمان الذين حلا بطبقة الفلاحين وقد كان ، فعلا صوت الشاعر الشعبي المجهول ، الذي اشتهر باسم « أبو شادوف » ، تعبيرا عن كونه من أبناء هذه الطبقة ، لتاول ملازمة الفلاح لهذه الآلة التي كانت تستعمل في رى الأراضي .

ويجب أن نقرر أن « أبا شادوف » ليس شاعرا معروفا بالنسب والنشأة ، وقد حاول الشيخ يوسف الشريفي شارح قصيدة أبي شادوف أن يثبت نسبه ويذكر شيئا عن نشأته فذكر في هذا الصدد روايتين ، أردفهما بشعر على لسان أبي شادوف ولكننا نشك في نسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبي شادوف » بل أن هذا الشعر أمام الدراسة المقارنة يصبح وثيقة هامة تثبت أن « أبا شادوف » ليس شاعرا معروفا بعينه ، وأنه صوت مجهول عبر عن حال الفلاح ، والشعر الذي ذكره الشيخ الشريفي على لسان أبي شادوف :

	بارة	=
ثمن حصان مقدمة	٢٠٠٠	
عادة قاءقسام	٢٠٠٠	
عادة الحازندار	٣٠٠	
ثمن أغنام الضيافة	١٠٠٠	
ثمن أغنام الهبة	١٠٢٠	
ركبات مقررة	١٠٠٠	
ثمن سمن معتاد	٣٠٦٠٠	
عادة الملزم	٣٢٤٠	
جملة مبلغ الواقد المقررة على قرية منية عامر بولايه الشرقية .	٤١١٦٠	
وقد سجلت دفاتر الترايع المأدات المقررة على القرى قرية قرية .		

أنا ياناس في قـولى دلايل  
أبو شادوف أنا قال لى أبويه  
بأنى قـد تريت يا جماعة  
يسمى كفر ثمرلى وطاطى  
وذا قولى وأبو شادوف اسمى  
ونظمى حق ماهوش هبايل  
عليه وجدنى أم نايسل  
بكفر يعرفوه ناس أو ايسل  
فكن صاحب فهامة يانماقل  
وشمرى حق من جانى بسايل (١)

وإذا تلمسنا الدليل لأثبت عدم نسبة هذا الشعر إلى الصوت الذى نظم القصيدة موضوع الكتاب وجدناه فى لفظة . هبايل فهذه الكلمة لاقرء فى قصيدة أبى شادوف وإنما وردت مرات عديدة ومكررة فى كل صفحة من صفحات الشرح ، وخاصة فى الجزء الأول من الكتاب ، الذى وضعه الشيخ الشريبنى كمقدمة للشرح الذى خصص له الجزء الثانى ، فهو يذكر دائماً « هبايل » « هبايلات » « هبالية » ، ولقد فإننا لا نستبعد أن يكون هذا الشعر ، من وضع الشيخ يوسف الشريبنى نفسه لاستقامته مع أسلوبه الشعرى والنثرى ، وعدم استقامته مع صياغة قصيدة الشاعر الشعبى أبى شادوف .

ودليل ثان على عدم نسبة هذا الشعر لأبى شادوف ، وأثبت أنه شاعر مجهول نجمده واضحاً فى الشطرة الثانية من البيت الأخير « وشمرى حق من جانى بسايل » فإذا كان الشاعر معروفاً ويحجب على من يسأله عن شعره بأنه حق ، فلماذا اختلاف الروايات التى ذكرها الشيخ الشريبنى حول نسبة ومكان نشأته ؟ . إلا إذا كان الشاعر مجهولاً ، وأن هذه الايات اقترنت عليه .

دليل ثالث ، أن الشيخ يوسف الشريبنى يقدم لاسلامه فى روايقه اللتين ذكرها عن نسب ونشأة الشاعر الشعبى أبى شادوف بقوله « وسمعت » « وقيل لى »

١ — هز القهوف فى شرح قصيدة أبى شادوف ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، جميع الصفحات التى ستذكر فى هذا البحث ، صفحات طبعة للطبعة الممودية ، وسنشير إلى الكتاب بعد ذلك باختصار « هز » .

« وأقول » وتبيننا نسبة الشعر السابق إلى « أبي شادوف » بنسحب على الشعر الذى ذكره الشيخ الشربيني على لسان « أبي شادوف » من مكانته في كفر شمري وطاطى والذى يقول فيه :

أبو شادوف عم - رى يا سلامة      أقول القول وأنا صاحب فهامة  
ولولا أن أبويه فى ترابو      أنا فى الكفر شيخ بلا ملامة (١)

فإذا سلمنا بنسبة هذا الشعر إلى الشاعر الشعبي « أبي شادوف » فيجب علينا أن نسلم بوجود كفر باسم « شمري وطاطى » وبوجود « تل فندرك » الذى انتقل إليه الشاعر بمد وفاة والده على حد تعبير نص الشاعر المنسوب إليه ، ولكن هذه الأسماء لا تجد الدلائل الجغرافية التى ينف بمجانها ، فإن المصادر التى دونت أسماء كفور وتلال مصر ، المدرس منها والمستحدث ، لاتذكر إسمى « كفر شمري وطاطى » « وتل فندرك » (٢) .

ونستخلص مما سبق أن « أبا شادوف » شاعر شعبي مجهول ، علا صوته معبراً عما انتاب الفلاح المصرى من ظلم ، وما حل به من حرمان ، وأصبح هذا الصوت مصدر إزعاج لكثير من أصحاب النفعة والباطان ، وخاصة بمد أن أصبحت قصيدته ، ياشدها كثير من أهل القاهرة ، فاجأ هؤلاء إلى أصحاب اليراع لوضع شرح عليها يقلل من قيمتها ، ويحط من شأن نازعها ومن شأن أبناء طبقة من أهل

---

١ - هز ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

٢ - رجعنا إلى القاموس الجغرافى لمحمد رمزى ، والدلائل الجغرافية التى أصدرته مصاحبة المساحة ، وبمض الأطالس القديمة ولم نثر على أسماء هذه البلاد ، كما أن دفتر الجسور رقم ١٣٦٥ المفوظ بدار المحفوظات التى سجلت فيه جميع القرى وحدودها لم يسجل لا إسم كفر شمري وطاطى ولا إسم تل فندرك .

٣ - هز . ج ٢ ، ص ١٣٠ .



الريف ، وكان هذا العمل من حظ الشيخ يوسف الشرييني . فمن هو هذا الشيخ ؟  
ومن الذى كلفه القيام بهذا العمل ؟ وما الظروف التى دفعت به إلى قبول هذا التكليف ؟  
وهل حقق هدف مكلفه ؟ .



الشيخ الشرييني هو يوسف بن محمد بن عبد الجواد بن خضر الشرييني نسبة إلى  
بلدة شربين ، التى كانت آنذاك من أعمال ولاية الغربية فقد ذكر « اتفق لى أننى  
كنت فى سفينة مسافراً من بلدى شربين لمصر ١٠٠ » (١) ، تعلم بالأزهر وعلم بهو عمن  
بالوعظ وكما يبدو من كتاباته أنه كان على صلة بأصوله الريفية ، رغم أن والده  
لم يكن يعمل بالفلاحة على حد تعبيره ، وهو يحرص دائماً على ذكر اتصاله بالريف  
بقوله « اتفق لى أن رأيت وحكى لى بعضهم » . يقصد أهل الريف « وشاهدنا ذلك »  
وغير تلك العبارات التى تدل على كثرة تروده على الريف ، وكثرة تطوانه بصفة  
خاصة بريف الدلتا ، ما بين دمياط والقاهرة ، كما اتبعت له فرصة السفر عن طريق  
الوادى أثناء ذهابه لتأدية فريضة الحج سنة ١٠٧٤ هـ - ١٦٦٤ م ، وفى اتصاله  
بالريف هذا - كما يتضح من كتاباته نفى لقول بعض الكتاب بأن « نشأة الشيخ  
يوسف كانت فى القاهرة ، وأن هذه النشأة القاهرية أقامت بينه وبين الريف سداً ،  
وغطت بعصره ، فلم ير للفلاحين فضيلة واحدة ، ولم يذكرهم بمحبة ، وإنما أطال  
لسانه فيهم بما كان أقرب إلى التجنى منه إلى التحدى » (٢) .

---

(١) هـ ز ، ج ٢ ، ص ١٠٠

(٢) محمد عبد الفتى حسن ، الملاح فى الأدب العربى ، المكتبة الثقافية ، العدد

« ١٢٨ » ، ص ١٤١ .

ولكن معرفة الشيخ يوسف الشريفي الواسعة بأحوال أهل الريف الاجتماعية والاقتصادية ووقوفه على دقائق لهجتهم ومعرفة بأصول هذه اللهجة . وبمادات أهل الريف ، كما يتضح لنا ذلك من نصوص الكتاب دليل واضح على عدم وجود هذا الحاجز بينه وبين أهل الريف .

ولكن إذا كان الشيخ يوسف الشريفي يرجع بأصوله إلى الريف، دائم الاتصال بأهله فلماذا أقبل على وضع كتابه هذا في شرح قصيدة « أبي شادوف » ؟

والإجابة على هذا التساؤل نجدها عند الشيخ يوسف نفسه فقد ذكر أنه كان مكلفاً بذلك من صاحب يد عليه لا يستطيع مخالفته « فالتمس مني من لا تسفي مخالفته ولا يمكنني إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحاً . . . يحمل الفاظه السخيفة . . وبين معانيه النسيمة ، ومقاصده المبيطة . والفاظه الحويطة ، وأن أتمه بحكايات غريبة ومسائل هبالية عجيبة ، وأن أتممه بشرح لفات الأرياف . . . وأشماهم المغترفة من بحر النخاييط (١) .

أما الذي كافه ، ولم يستطع أحد ممن تصدوا للكتابة عن الكتاب على عجل ، أن ينتبه نه فقد عينه لنا الشيخ يوسف نفسه ، في الأرجوزة التي ختم بها الجزء الثاني من الكتاب والخاص بشرح القصيدة ، بأنه الشيخ أحمد السندوبى أحد علماء الأزهر وذلك بقوله :

« ونختم هذا الكتاب بأبيات من بحر الحرافات فنقول :

تم كتاب المجلس والنخريف وما جرى في وصف أهل الريف جميلته جزآين باختصار .

وأصل ما ألتأتى لفعله      وشرحه ونسخه وقلبه  
 المعارف الخبر وحيد المهر      وعالم الإسلام زاكى الفخر  
 شيخ إمام مصدر الطلاب      وروضة المعلوم والآداب  
 ومعدن الجود مع المطلوب      وأهلى الإمام أحمد السندوبى  
 جزاء رب العرش جنات النعيم      مع النظر لوجه مولانا الكريم  
 والله يرحم من قرأ كتابى      هذا، ورهده إلى الصواب  
 ومن رأى فيه عيوباً وخلل      وسدها فالشخص معدن الدلل  
 ولا تلتنى فالسباح أفضل      واعذر أخاك مكرها يابطل (١)

ولكن لماذا عزف الشيخ أحمد السندوبى (٢) نفسه عن شرح القصيدة ؟  
 ولماذا لجأ إلى الشيخ يوسف الشربى بالندبات ؟

ربما كان عزوف الشيخ أحمد السندوبى عن شرح القصيدة بنفسه راجع إلى  
 ما عرف عنه من مقاومة للظلم ، والقصيدة تعبر عن مشاعر طبقة مظلومة تشكو  
 يؤسها وحرمانها وتعرضه لذلك سوف يقوده إلى مزالق قد تخشى عواقبها .

(١) هز ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤

(٢) ذكر على مبارك فى الخطط ، ج ١٢ ، ص ٥٧ عن الشيخ أحمد السندوبى  
 « بأنه أحمد بن على السندوبى الشافعى المصرى ، كان من أعيان المدرسين بالأزهر ،  
 ومن أكابر الأفاضل ذا عبارات فصيحة ، تصدر للاقراء فى ضروب من الفنون . .  
 وحجج مرات وتوفى بمصر سنة ١٠٩٧ هـ ، ١٦٨٥ م . وعمره ثمان وستون سنة  
 رحمه الله تعالى .

وذكره الجبرتى فى الجزء الأول من كتابه عجائب الآثار ، مرات عديدة تحت  
 اسم « الشهاب أحمد » .

وفي ذلك الوقت فإن الشيخ يوسف نظراً لاشتغاله بالوعظ ، وتطوافه الكثير بالريف ، كان على صلة قوية بمسادات أهل الريف وأطمعهم ، وكل ما تناولته القصيدة من أفكار ، وكان يدرك الظلم الذي حل بأهل الريف — كما سيتضح لنا فيما بعد — فقبل الإقدام على هذا العمل مدفوعاً بعوامل كثيرة كما سنرى .

وتجب الإشارة أن الشيخ يوسف الشريفي كان قديراً وجريئاً في نفس الوقت فهو رغم ما ألصقه من الفاظ بذيئة بعوام أهل الريف ، إلا أنه استطاع في الوقت نفسه أن يظهر الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة ، وذكر أن هناك فئة من اللزيمين ضالة ظالمة لا ترقى ضميراً ولا ذمة ، كما سنرى ذلك عند دراستنا للكتاب . أما العوامل التي دفعت به إلى الإقدام على عمله ، فقد ذكرها لنا هو بنفسه بوضوح في بداية الجزء الأول الذي جمعه مقدمة للشرح الذي خصص له الجزء الثاني ، ويبدو من من كلامه أنه قبل هذا التكليف على كره منه .

عوامل قبوله التكليف :

أولاً — سوء حال أصحاب البلاغة :

فلم يمد الاشتغال بالفكر في فترة الركود ، يأتي لصاحبه بلقمة العيش أو يجلب له رزقاً . وقد تساق الارزاق لمن لا يدرك الخط في الأوراق ، ويحرم صاحب البلاغة ، ولا يجد من القوت بلاغة (١) .

وفي هذا النص إشارة ضمنية إلى أن الشيخ يوسف أقبل على ذلك مأجوراً نظراً للفقر الذي كان يعاني منه العلماء ، بينما كان بعض الجهال ينعمون في رغد من العيش .

## ثانياً - مداراة أصحاب السلطان :

ذكر الشيخ يوسف أنه أقبل على هذا العمل مداراة منه لأصحاب السلطان « فالشخص يكون مع زمانه بحسب حاله ، يدارى وقته بما يناسب لأحواله ويكون حذراً من دهره وصولته ، ويرقص للقرود في دولته ، ويعاشر الناس على قدر أحوالهم ، ويدور معهم ، وينسج على منوالهم ، ويندرج في مدارج خلاطهم ، ويظهر في مظاهر براعاتهم كما قال بعضهم :

ودارهم مادمت في دارهم      وحبيهم مادامت في حبيهم  
وأحسن المشرة مع بعضهم      يمينك البعوض على كلهم » (١)

وقد كان الشيخ يوسف دقيقاً في كتابته ، فهو يذكّر سبب كل خطوة اتبعها ، فهو مدرك لمزاج عصره ، الذى أصبح لا يميل إلى سماع الفكر الجاد ، نظراً للهموم التى كبلت هذا المزاج ، وشأت حركته الفكرية ، ولذا علل سبب تسميته الكتاب بالإسم الذى حمله بقوله « وقد سميت هذا الشرح هذا القهوف بشرح قصيدة أبى شادوف ، وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة الإعانة على كلام أعرفه من بنات الأفكار واسطوره من فشار ، وأن يكون من بحر الخرافات ، والأمور الهبالية ، والخلاعة وللجون . . فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة لأن النفوس الآن منشوقة إلى شيء يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد النوم :

ففى مذهبي أن الخلاعة راحة      تسلى هموم الشخص عند انقباضه » (٢)  
ويمكن أن نستنتج من هذا النص ، إعتراف الشيخ يوسف بأن حكاياته الهبالية

(١) هز ، ج ١ ، ص ٤

(٢) هز ، ج ١ ، ص ٣

وخرافاته التي وزعها في كثير من صفحات الكتاب ، كانت باعترافه من بحر الحرفات والمجون ومن نسج خياله لإدراكه الواعي بالظلم الواقع على أهل عصره حتى أصبحت النفوس على حد تمبيره « مقلقة إلى شيء يسلمها من المجهوم ، ويزيل عنها وارد الغموم » ثم أقبل على وضع الجزء الأول من كتابه قائلا « ولنتسرع الآن فيما وعدنا ، وما زمرنا به ، ورقصنا ، والشخص يطلب عليه علمه وفنه ، والزامر لا يحب ذقنه » (١) .

وسنمرض الآن لدراسة هذا الجزء ، ، وما جاء فيه لتبين إلى أي مدى حقق الشيخ يوسف هدفه في تحقيق رغبات من يهمهم مثل هذا العمل .



### الجزء الأول :

هذا الجزء تأليف خالص ، وضعه الشيخ يوسف الشرييني ليمهد به للشرح الذي خصص له الجزء الثاني حسب تقسيمه للكتاب ، وهذا الجزء في غالبه نسيج من الحكايات الهزلية تحدث فيها عن أسماء أهل الريف ، رجالات ونساء ، والعمادات السائدة بينهم والجهل المطبق عليهم ، وسوء اخلاق أهل الريف - كما يرى - حقيقة أن معظم هذه الحكايات ، إن لم تكن كلها مشحونة بالتشنيع والافتراء على أهل الريف ، لكن لو أدركنا أن الشيخ الشرييني وضع هذه الحكايات لللفتة بمعلا ذلك بقوله ، « حتى يشنهر شرح هذا القصيد من دمياط إلى الصعيد ، وأرجو الايخلو منه إقليم ولا بلد من بلاد الصعيد » (٢) .

كما ذكر مثل هذا القول في مقدمة أرجوزته التي ختم بها هذا الجزء من الكتاب قائلا « وبعد اني ناظم أرجوزة لطيفة ، مفيدة وجيزة ، تخبر عن حال ذوي الرزالة

---

(١) هـ ، ج ١ ، ص ٥

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٢

كذا عوام الريف ، لا محالة ، فخذ هذاك الله ، ما أقول في نظمها ، وعنه  
لاتحول» (١).

ولكن يجب ألا ننسى مثل هذا القول ، أن الشيخ يوسف ، كان حريصاً  
دائماً على أن يذكر بعض المباريات ، التي يشمر القاريء أن فيها تصوراً لحال الفلاح  
السيئة والظلم الواقع عليه مثل عبارة «مال السلطان» التي كان يكررها على لسان الفلاح  
في معظم حكاياته وكأنها سوط يقرع الفلاح وينهاه عن فعل أى شيء لنفسه قبل  
أن يسدد مال السلطان .

على أى حال فإن الشيخ يوسف ، وضع أهل الريف في هذا الجزء في إطار يرضى  
في ظاهره أصحاب السلطان ، ويشبع رغبتهم ، بتصوير أهل الريف في صورة سيئة  
تأبى العين النظر إليها ، ولكن في ذات الوقت فإن التفاصيل الداخلية لهذه  
الصورة تحتوى بما لا يدع شكاً ، تصوراً كاملاً للظلم الذى حل بهذه الطبقة والاهمال  
الذى أصابها نتيجة للرقابة السيئة التى أصبحت تحكم العلاقة بين أفراد هذه الطبقة  
من جهة وأجهزة الإدارة من جهة أخرى ويكفى أن يرسم للشيخ يوسف الصورة  
التالية لسوء أخلاق أهل الريف ليرضى بها ظاهرياً أولى الشأن فهو يقول «أما سوء  
أخلاقهم ، وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار ، وملازمتهم لشبل الطين  
والمنار ، وعدم اكتراثهم بأهل اللطافة ، وامتزاجهم بأهل السكافة كأنهم خلقوا  
من طينة البهائم . : وأيضاً عندهم قلة الوفا ، وعدم الانس والعصا ، لا يؤدّون  
القرض ، ولا يوفون السنة من الفرض ، إن هاملتهم أكلوك ، وأن نصحتهم  
أبضوك وإن أقت لهم الشرع رفضوك ، وأن ألنت لهم الجانب مقتوك ، العالم عندهم  
حقير والظالم عندهم كبير أمورهم معاند ، وليس عندهم فوائد ، عندهم قابض المال  
أعز من العم والحال ، سود الوجوه ، إذا رأوا معروفًا انكروه كما قال الشاعر في  
اللمنى :

أهل الفلاحة لانكرهم أبداً فإن إكرامهم في عقبه ندم  
يبدو الصياح بلا ضرب ولا ألم سود الوجوه إذا لم يظلموا وظلموا (١)

ولكنه بجانب هذه الصورة فإنه يذكر كثيرا في ثنايا حكاياته ، بعض مظاهر  
الفسوة التي يرتكبها رجال الإدارة مع الفلاحين ، وهجر هؤلاء لقراهم ومزارعهم  
خوفا من العقاب ، فالإبن يفر هاربا إذا انكسر مال السلطان على أبيه ، وإلا أخذ  
رهينة حتى يناق أبوه ماعليه من مال فعبارات « مال السلطان » و « العونة » .  
« الوجبة » « زلة الصراف » « مجيء الديوان » « زلة الكشاف » لا تذكر في هذا الجزء  
إلا ويشعر القارئ بمدى الرهبة التي كانت تسيطر على الفلاح عند سماعه إحداها .  
فحاول واحدة منها معناه طلب المال والموائد من الفلاح رغم سوء حاله الاقتصادية  
التي أصبح يعيشها . ومن هنا كان الصراع بين طبقة الفلاحين من جهة ، وأجهزة  
الإدارة من جهة أخرى ، ولكن الغلبة كانت للفريق الأقوى ، وهروب الفريق  
الأضعف ، فهو صراع غير متكافئ على أى حال . أيضا فإن الشيخ يوسف في هذا  
الجزء ، حرص كل الحرص ، أن يذكر دائما عبارة « عوام أهل الريف » فيقول

١ - هز ، ج ١ ص ٥ - ٦

للجبرتي وصف شبيه بهذا الوصف فقد « قال وقد سلط الله على هؤلاء الفلاحين  
بسوء أفعالهم ، وعدم ديانتهم وخيانتهم واضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا  
يمفو عنهم كما قال فيهم البدر الحجازي » :

وسبحة بالفلح قد أنزلت	لما حووه من قبيل الفعـال
شيوخهم ، استأذم وللشد	والقتل فيما بينهم والقتال
مع النصارى ، كاشف الناحية	وزد عليها كدمهم في اشتغال
ونقرهم ما بين عيـنهم	مع أسوداد الوجه هذا النكال

عجائب الآثار ، ج ٤ ؛ ص ٢٠٨ .



« وقال لى بعض عوام أهل الريف » ، « وافئق لبض عوام أهل الويف » والتعريض دائماً فى هذا الجزء موجه إلى عوام أهل الريف دون غيرهم ، وربما أراد الشيخ بذلك أن يخرج من أهل الريف العرب وللمالك وغيرهم من أجهزة الإدارة الذين استأنم عملهم إقامتهم بالريف ، على أى حال فإن التعريض فى هذا الجزء ارتبط بـعوام أهل الريف ، ولعله قصد بهم العاملين بالفلاحة فعلاً .

وختم الشيخ يوسف الجزء الأول من كتابه ، بأرجوزة طويلة سرد فيها جميع الأفسار الرئيسية التى وردت فى حكاياته من سوء أخلاق عوام أهل الريف ، وبذاعة أسمائهم والجهل والفقر اللذين حلا بهم ، والطرق الصوفية وسيطرتها على عقولهم وتأثيرها على حياتهم ، ثم سفه شعرهم ، وربما لأنه أدرك أنه مقبل على شرح قصيدة من هذا الشعر ولذا قال :

ناظهم إن قال يوما شعرا      فشمع يشبه طعم العذرا  
سماعه إذا بدا رزية      لسكن له ما بينهم مزية (١)

ويجب أن نشير إلى أن الشيخ يوسف ، رغم كل ذلك ، قد اتبس العذر لنفسه فاقضى جملة يقبل على عمله هذا سمة العصر — على حد تعبيره — فهى التى دعته إلى مثل هذا التلون فى الأسلوب فذكر « فالسلامة فى مداراة الناس ، وحسن الانطباع مهم : لطف الإيناس وأن يكون الشخص متقللاً فى أطوارهم دائراً فى تلك أدوارهم كما صرحت بذلك فى بعض الأبيات .

فطورا ترانى عالما ومدرسا      وطورا ترانى فاسقا فلفوسا  
وطورا ترانى فى المزمار عاكفا      وطورا ترانى سيّدا ورئيسا  
مظاهر أنس إن تحققت سرها      تريك بدورا أقبلت وشموسا (٢)

(٢) نفسه ، ج ١ ، ص ٥

(١) هز ، ج ١ ، ص ٨٧

وهكذا زى أن الشيخ يوسف كان دائماً يلتمس لنفسه العذر ، لكل ما يقدم عليه ، وربما لأنه أدرك أن إقدامه على مثل هذا العمل سوف يجر عليه غضب وقد الكثيرين .



### الجزء الثانى .

عندما بدأ الشيخ يوسف الشريينى فى الجزء الثانى الخاص بشرح القصيدة الشعبية فإنه اعترف فى بداية هذا الجزء بأنه أطلق « عنان اليراع لبيان تلك الأمور الحاصلة لحل معانى نظم القصيدة (١) » ويجب أن نقننه لمعزى معنى عبارته « لبيان تلك الأمور الحاصلة » فإنه من خلال هذه الكلمات أعطى لنفسه حق ذكر وإيضاح الأعباء الظلمة التى كان يشكو منها الفلاح .

والدارس يستطيع أن يميز بسهولة فى القصيدة ثلاثة أقسام ، كل قسم منها تناول موضوعاً قائماً بذاته ، وسنمعرض لكل منها على حدة ، نذكر نص الأبيات التى تشكل القسم ، ثم نتلوها بدراسة شرح الشيخ الشريينى لها ، وقد تناول القسم الأول (\*)

---

(٣) هـ ج ٢ ، ص ٩٠ .

(\*) أبيات القصيدة موزعة على صفحات الجزء الثانى كله ، حيث أن الشيخ الشريينى يذكر البيت من النص ويضع أمامه حرف (ص) يقصد النص ثم يشرحه بوضع حرف (ش) أمام كلامه ويقصد الشرح وقد تمت بتجميع نص القصيدة من صفحات الجزء الثانى وكتبت أبيات كل قسم على حدة ، حسب التقسيم الذى وضعته لموضوعاتها .

١ - القسم الأول من القصيدة وموضوعه :

شكوى الفلاح من ظلم للزمين وأعوانهم من أجهزة الإدارة والأليات التي تصور هذا الجانب من حياة الفلاح .

- ١ - يقول أبو شادوف من عظم ماشكى من القمل جسمه ما يضال نحيف
- ٢ - أنا القمل والصبيان في طوق جبق شبه النخالة يحرفوه جريف
- ٣ - ولا ضرني إلا ابن عمي محلبة يوم تبجي الوجبة على محيف
- ٤ - وأيشم منه ابن أخوه خنافر يقرط على يفضي يخليه ليف
- ٥ - ومن نزلة الكشاف شابت عوارضى وصار لقلبي لوعة ورجيف
- ٦ - ويوم يحى الديوان تبطل مفاصلى وأهرطى روحى من التخوف
- ٧ - وأهرب حدا النوان والتف بالبا ويبقى ضراطى شبه طبل عفيف
- ٨ - ويادوب عمرى فى الحراج وهمه تقضى ولا لى فى الحصاد سميف
- ٩ - ويوم تبجي المونة على الناس فى البلد تخينى فى القرن أم وطيف

واضح من هذه الأبيات شكوى الشاعر الشعبي الذى يعبر عن إحساس بنى طبقة من الظلم الواقع عليهم من أجهزة الإدارة التى يتعاملون معها ، وقسوة هذه الأدوات المائنة - المملوكية ، - فى جمعها للأموال ، وانباهاها طرقا غير مشروعة ، وهذا ما لم يستطع الشارح أن ينسكه ، بل أكد كعاصر ، وشرح هذه المظالم التى كانت سائدة فى عصره بإيضاح ، مما يجعل لمعلوماته أهمية كبيرة ، ترقى إلى مصادر الدرجة الأولى لدراسة تاريخ مصر فى تلك الفترة ، والأدلة على ذلك كثيرة فى القصر نكتفى بذكر البعض منها ، فمثلا عندما يتعرض لشرح البيت الثالث الخاص بشكوى الفلاح من الوجبة يذكر « بمجرد طلوع الشد أو للآزم أو النصراى إلى السكر ، أو البلد ، فتوزع على الفلاحين بحسب ما يخصهم فى الأرض من القرايط والقدن ،

ونحو ذلك ، فمنهم من يكون عليه في الشهر يوم ، ومنهم من يفعلها في كل جمعة (\*) مرة ، ومنهم من يجعلها في كل ثلاثة أيام ، وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم ، وحسب زيادة الأرض ونقصها فلا بد منها في كل يوم مدة الإقامة ، فيقوم الرجل بمكافئة للشد أو النصراني إن كان حاضرا ، وجميع من يكون من طائفة الملتزم ويلتزم بأكلهم وشربهم ، وجميع ما يحتاجون إليه من علق دوابهم وما يتعنونه من الأكل من اللحم والدجاج ، ولو كان فقيرا الرّمود بذلك قهرا عليه ، وإلا حبسه للشد وضربه ضربا موجعا ، وربما هرب من قلة شيء يصنعه ، فيرسل للشد إلى أولاده وزوجته ويهددهم ، ويطلب منهم ذلك ، فربما رهنّت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم ، وأخذت الدجاج أو اللحم وأطعمتهم وأحرمت أولادها من الأكل منه خوفا على نفسها من أنه لا يسكفهم مثلا ، وقد يرثي الفلاح الدجاج فلا يأكل منه شيئا ويحرم نفسه وعياله من خوفه من الضرب والحبس . . . وصارت ( الوجبة ) على الفلاحين حكم الأمر الواجب عليهم للملتزمين ، فلا بد من فعائها للشد بالقرية أو النصراني أو الملتزم ، إذا حضر كما تقدم بيانه ، وإذا أسقطها بعض الملتزمين ، جعل في مقابلتها شيئا معاوما من الدراهم وأضافة إلى المال ويلزمهم بدفعه إلى الشد بالقرية ، تؤخذ منهم كل عام فهي من أنواع الظالم (١) .

وفي رأينا أنه لا يوجد أبلغ وأوقع في النفس من هذا الوصف التصويري الذي

(\*) يقصد كل أسبوع .

(١) هـ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

سبق أن بينا من واقع سجلات التزام كيف كانت تقدر العادات بأموال تضاف إلى المال للبري ، كما أن سجلات الالتزام سجلت ذلك أيضا .

أثبتته الشيخ يوسف الشريفي لهذا النوع من الظلم الذى فرض على أهل الريف، ووضح أنه أصاب المهدف بتصويره هذا النوع من الظلم فى أسلوب واضح دقيق لا يحتاج معه إلى دليل آخر . وأنه إذا كان قد قسى على الفلاح فى ظاهر الكثير من الفاظه إلا أن ذلك لم ينس له تسجيل المظالم التى وقعت عليه من أصحاب السلطان .

وكان منصفاً حقاً عندما ذكر أن بعض الملتزمين كان يتمطف عن الوجبة بالسككية وتحدث عن غرامة البطالين واستخدام الفلاحين بدون أجر قائلا « فكل ما كان فيه إضرار للناس فهو حرام » ، ويبين لنا بوضوح « أن الأمير أو غيره إذا ألزم بقربة وجود فى دلائر من ألزم بها قبله الوجبة وغرامة البطالين ، وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم ، فيجمل ذلك على أهلها حكم الحوادث \* السابقة كما جرت به العادة » (١) والحقيقة أن الشيخ يوسف الشريفي فى شرحه هذا لا يقل درجة عن ما أثبتته الوثائق فقد سجلت دفاقر الالتزام المحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلمة بالقاهرة ، للمادات المقررة على الفلاحين للملتزمين والكشاف وغيرهم .

وكذلك أوضح فى شرحه نزلة الكشاف على القرى ، مدى الخراب الذى كان يلحق ببعض القرى نتيجة لنصرافهم ، وكيف أن الفلاحين « يسرعون له فى الأكل والشرب والتقايد على ما جرت به العادة » (٢) .

أما وقت مجى « الديوان » ، أى حلول سداد مال الديوان « فيستكثر الخوف والحبس والضرب لمن لا يقدر على غلاقى للسال ، فمن الفلاحين من يقترض الدرهم بزيادة ، أو يأخذ على زرعه إلى أوان طلوعه بنقص عني ييمه فى ذلك الزمن ، أو

---

(١) هـ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

\* الرسوم والضرائب المستحقة

(٢) هـ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

يباع بهيئة الق تحاب على عياله ، أو يأخذ مصاغ زوجته برهنه ، أو يتصرف فيه بالبيع ولو قهرا عليها ، ويدفع الثمن للنصراني ، أو لمن هو متولى قبض اللال وإن لم يجد شيئا ، ولا يرى من يملكه ، وخشى للآثم أو للشد من خرابه (\*) من البلد أخذ ولده رهينة عنه ، حتى يفلق اللال ، أو يأخذ أخاه ، أن لم يكن له ولد أو أحد من أقاربه ، أو يوضع في الحبس للضرب والمقوبة حتى تنفذ فيه أحكام الله تعالى ، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه من هم اللال وضيق للعيشة . . . حتى اشتهر وعم مال السلطان يخرج من بين الظفر والاحم ثم يذكروا ونزول الديوان في البلد على كل حال ، أمرهم على الفلاحين ، ومصيبة على اللالين . . . فلا بد على كل حال من تسليم اللال ، ولو حصل من ذلك لهم والنكال (١) وهكذا نرى أن الشيخ الشرييني لم يستطع إزاء شكوى الشاعر الشعبي سوى ذكر الحقائق ، ووضعها بالصورة التي كانت تطبق بها في وقته حتى أصبحت معلوماته ذات أهمية تاريخية كبيرة ، أضف إلى ذلك أن الشيخ الشرييني سجل لنا حقائق على قدر كبير من الأهمية ، فهو يذكّر أن قابض اللال لم يكن في كل الأحوال نصرانيا ، كما هو شائع ويفهم ذلك من قوله ويدفع الثمن للنصراني ، أو لمن هو متولى قبض اللال .

ثم يواصل الشيخ رسم الصورة التي شكى منها الشاعر الشعبي ، ويزيدها إيضاحا عندما يمرض لشكواه من قضاء عمره في الهم من أجل الخراج ، عاقدا لنا مقارنة تاريخية جلية بين اللغز التي أصبحت تحمل بالفلاحين في عصره نتيجة للموائد

---

\* - يقصد هروبه من البلد .

١ - هـ ، ٢٦ ، ص ١٢٥ ، ١٢٨

وكثرتها وبين الصورة اليسيرة التي كانت تسير عليها الأمور في العصر السابق لعصره  
 وبين لنا كيف أن « الأرض لا يقوم بزرعها إلا الفلاح القوي للتيسر ، خصوصاً لما  
 زاد عليها الآن من الظالم ، وزيادة الحراج والعوائد للكنيسة على الفلاحين وللنارم  
 والخزوع وإن ورد أن فيه تسعة أعشار البركة لا يفي بهذا القدر من كثرة الظلم ،  
 وأما في الزمن المتقدم فلم يكن عليه عوائد ، ولا كلف ولا مفارم ولا شيء مما هو  
 موجود الآن بل كان الشخص يزرع الأرض ، وكان خراجها شيئاً يسيراً ، ولا يعرف  
 وجبة ولا غرامة ولا شيئاً من ذلك قط » ويعقب بقوله « وكانت البركة حاصلة بزيادة  
 والأرض عامرة بالزروع والناس في غاية الخير وسعة الرزق والسكسب » (١) .

لا ريب في أن هذه اللامومات التي سجلها الشيخ الشريف كعاصر لوقت حدوثها  
 بأمانة ودقة ، مع ربطها بالصورة التي كانت سائدة قبل عصره ، وهذا المنهج يعطى  
 تشرح الشيخ الشريف الصفات العلمية للموضوعية .

وعندما يعرض للموتة وخوف الفلاح منها وخشيئتها ، فإنه يشرحها بصورة  
 واضحة يستطيع الدارس أن يجد في شرحه كل ما يبتغيه عن ماهيتها ووقتها والقوى  
 التي تشملها وإقرارها ، وعدم شرعيتها فهي « أوان حفر السواقي وضم الزرع ،  
 وحفر القنى ، مما يحتاج إليه في هذا المنى ، والموتة ( السخرة ) إنما تكون في بلاد  
 الملتزمين التي فيها الإوسية ، وهو أن غالب الملتزمين إذا أخذ قرية ، أو كفرا من  
 كفور الريف يزرع فيها ، أوفى الكفر جانباً من الأرض ، والبقية يهبها للفلاحين  
 بخراج معلوم ، ويسمى هذا الجانب الذي يزرعه زرع الأوسية فيرسل ثيراناً وأخشاباً  
 ومخاريت وما يحتاج إليه ، ويحمل له على ذلك وكبلا ومخامعداً لأخشابه وبهائم ،  
 ويقال لها دار الأوسية ، ويوكل من يصرف على البهائم وغيرها ، بحساب وضبط ،

فإذا احتاج الأمر لشيل الطين من الآبار ، وحفر القن أو ضم الزرع ، أمر للشهد بالقرية أو الكفر رجلا يقال له الفخير فينادى المونة يا فلاحين ، المونة يا بطلين ، فيخرجون عند صبيحة النهار جميعهم ، ويسرحون للحفر ، أو لسكل ما يأمرهم به كل يوم ، من غير أجره ، إلا أن يفرغ الحفر والضم ، وكل من تراخى أو تكاسل عن السروح ، أخذه للشد وعاقبه وغرمه دراهم معلومة ، وبعض البلاد تكون المونة فيها على رجال معروفين بالبيوت مثلا (\*) ، فيقولون يخرج من بيت فلان شخص واحد من بيت فلان شخصان بحسب ما تقدر عليهم قديماً وحديثاً ، فلا ينك من عليه المونة منها ، وإن مات جملوها على ولده ، وهكذا ، فهي داهية كبرى على الفلاحين ومصيبة عظيمة على البطلين والله الحمد أراح الله قريتنا منها ، إنها هي قراريطة معلومة على الفلاحين لا يعرف للأنتم إلاخراجها يأخذ في كل سنة على التمام والسكل ، وإن كان عليهم بعض الموائد ، ومظالم فليست كبلاد الأوسية ، لأنهم دائماً في تعب وكدر وغرامة وسخر وهم زائد « (١) » .

وهكذا أوضح الشيخ الشريفي بما لا يدع مجالاً للشك مدى الظلم الذي كان يحرق بالفلاحين نتيجة للمونة وغيرها من الموائد ، بل أكد أن المونة من أشد أنواع للظلم التي حلت بالفلاح آنذاك ، وبذلك تستطيع أن تفهم رأي الشيخ يوسف الشريفي في شرحه لهذا القسم من قصيدة الشاعر الشعبي أبي شادوف وضع أمامنا الحقائق التالية .

(\*) يقصد بالبيوت العائلات .

(١) هـ ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

ذكر العجرتي عن المونة « وكان من طرائقهم أنه إذا آن وقت الحصاد والتخضير طلب للأنتم أو قائم مقامه الفلاحين فينادى عليهم الفخير أمس اليوم للطلوبين في صبحه بالتسكير إلى شغل للأنتم ، فخرج تخاف امذر أحضره الفخير أو للشد وسحب من



أولا . أن الفلاح كان يعاني الكثير من المظالم التي حلت به نتيجة لتطبيق نظام الالتزام عليه وإدارة الأرض الزراعية عن طريقه .

ثانيا : استغلال للتومين واهوائهم من أجهزة الادارة ، لسلطانهم ، واتباعهم طرقا غير مشروعة في معاملاتهم للفلاحين ، وفرضهم كثيرا من الموائد التي أصبحت ترهق كاهل هذه الطبقة .

ثالثا : تقاعس السلطة للركزية في القاهرة ، عن ردع هذه الادوات وتركها في ممارسة تعسفها مع الفلاحين ، دون تدخل من جانبها ، فيه دليل إدانة لها وبرهان على ضعفها .

وأخيرا يمكننا أن نقرر باطمئنان ، أن الشيخ الشريفي ، إذا كان قد الضيق كثيرا من الصفات البذيئة بالفلاحين ، إلا أنه في هذا الجزء من كتابه كان جريئا حقا عند توضيحه للمظالم التي حلت بالفلاحين ، ونقده للاوضاع السائدة ، وعدم تردده في كراهتها ظلم وحرام وغير ذلك كما سبقت الإشارة ، ولقد يمكننا أن نذكر أنه إذا كان في الكتاب جانب اتهام للفلاح — وربما كانت له دواعيه . فإن فيه أيضا جانب إنصاف .



## ٢ — القسم الثاني من القصيدة وموضوعه :

الأطعمة التي تمنأها الشاعر الشعبي أبوشادوف ، تعبيرا عن حاجة أبناء طبقته إليها : رغم فقر هذه الأطعمة ، إلا أن تغنى الشاعر الشعبي بحرماته منها ، يوضح لنا إلى أي مدى ساء حال الفلاح حتى أصبحت نفسه تنهل إلى هذه الأطعمة ، وذلك نتيجة للمظالم التي سبقت الإشارة إليها والتي أرهقت كاهله أما الايات فهي :

---

== شنبه واشبعه سبا وشتا وضربا ، وهو يسمى عندهم بالمعونة والسحرة ، واعتادوا ذلك بل يرونه من اللازم الواجب « عجائب الآثار ج ٥ ص ٢٠٧ » وفي رأينا أن وصف الشيخ الشريفي أكثر إيضاحا وتصويرا وعمقا عما ذكره الجبرتي .

- ١٠- ولا هدى من بهد هاد ، وهاده  
 ١١- ولا شافنى الا الدمس وريحتو  
 ١٢- علامن رأى اليسار فى الجرن جالوا  
 ١٣- طى من قشع جفنه بليقة ملانسه  
 ١٤- طى من جتوقصمه وهو ييجحرت  
 ١٥- طى من دعس بالدمز فى اللش بالبصل  
 ١٦- على من شرب مترد ملان مطنبر  
 ١٧- على من جتوا أم الحلال لدارو  
 ١٨- أنا إن شفت هدى ، يوم طاجن مشكشك  
 ١٩- مق أنضر الحبز فى الدار عندنا  
 ٢٠- مق أنضر القول للشوى بفرننا  
 ٢١- مق أنضر أن طحن الطحين وجبتو  
 ٢٢- أيامطيب الجلبان والعدس إذا استوى  
 ٢٣- يا محسن الحبز للقمع على التده (\*\*\*)  
 ٢٤- على من ملا قحفو جيئنه طربه  
 ٢٥- على من قشع لقانة أمو ملانسه  
 ٢٦- واقعد لها بالمزم فى رايق الضحى
- سوى الكشك (\*) لما يستحق غريف  
 علا من جتو جفنه بنص رغيف  
 ويدعس (\*\*) ولو كان بالقننج ضعيف  
 ولو كانت بلا قلقاس يادنديف  
 ويقعد يجرف لالحك تجريف  
 ولو كان بالككرات كان ضربف  
 من اللبن الحامض يرف ريفف  
 ويعزم على أهل البلد ويخيف  
 فهداك يوم البسط والتقصيف  
 واندف منها بالمويش نديف  
 ولفو يقشروا والعروق ليفف  
 وبططلى منه فطير رهيف  
 وشرش بصل حولو وميت رغيف  
 فوقو من السرسوب حلب نضيف  
 وراح ورا الجاموس برعى النيف  
 من الهيطلية اللى لها ترصيف  
 واسحب لها بمبوبة أم وطيف

(\*) نوع من الطعام لازال يستعمل فى الارياف .

(\*\*) أى يأكل بشراهة حتى يملأ بطنه .

(\*\*\*) يقصد فى الصباح المبكر وقت أن يكون الندى على النباتات .

- ٢٧- ألا يا ترى إشحال اللبن بعد غلوه      ولو كان بالحزب السخين رديف
- ٢٨- ألا يا ترى إشحال مفروكة اللبن      على زلظها قلبي يرف رديف
- ٢٩- أنا إن شفت لقانة ابن عمي غييمر      ملانة من التفتيت ملو طفيف
- ٣٠- قشرته جميعه ما تركت بقيته      لنيري ولا عندي بدا توقيف
- ٣١- أنا خاطري أكلت فسيخ على النده      أضال عليها باكيا وأسيف
- ٣٢- على من نضري فرن دارو وطواجن      زغاليل من برج بن أبو شعيف
- ٣٣- وفطر فطابر من طحين ابن عمه      ويقعد لها قمدة غلام خفيف
- ٣٤- على من نضري طاجن سمك في فرينه      ولو كان يا إخواني بلا تنضيف
- ٣٥- على من رأى في التل كرش ملقح      ومن فوقه الدبان ينف عفيف
- ٣٦- دنا إن شفته خدتو بحالو سالتو      وكلتو بتلفوا ما أرى تقنيف (\*)

ولم يزد عمل الشيخ الشرييني عند شرحه لهذا القسم رغم طوله ، عن وصف هذه الأطعمة وأن الفلاح حرم منها ، نتيجة للظالم للادوية التي حلت به ، ونظر لنشأة الشيخ الريفية ، وتردده على كثير من القرى ، والتقائه بكثير من أهل الريف ، فإنه أجاد في شرحه لصناعة هذه الأطعمة ، في كل من الريف والمدينة ، وأكد أن صناعة هذه للأكولات أحسن وأكثر إتقاناً في المدينة عنها في الريف ، كما ذكر بعض الحكايات المتعلقة بتسمية هذه الأطعمة ، وبعض فوائدها في علاج بعض الأمراض ، وزمن ظهور بعضها ، وفي زمن من الخلفاء والسلاطين ظهر هذا الصنف أو ذاك ، وسجل بعض الأشعار وللواويل التي تنفي بها أهل الريف عن هذه الأطعمة .

...

(\*) وضع الشيخ الشرييني في شرحه وصفا واضحا لجميع هذه الأطعمة والأواني التي تستعمل في صناعتها .

٣ - القسم الثالث من القصيدة وموضوعه :

تمنى الشاعر الشعبي زيارة المدينة وتحقيق بعض أمنياته فيها وأكل بعض الأطعمة

التي حرم منها :

- ٣٧- أنا إن عشت لأروح للمدينة وأشبع كروش ولو أنى أموت كفيف  
٣٨- وأخذ من غزل المعجوز وأيمو وآكل بحقوايا بن بنت عريف  
٣٩- وأسرق من الجامع زرايين عدة وآكل بها من شهوى فى الريف  
٤٠- وأشبع من الترمس وآكل مقبلى وألفوا بقشرو ماأرى توقيف  
٤١- وآخذ لى لبدة وكرمشنيرو أنزل كما كلب ابن أبو جفيف  
٤٢- ويجلس بجنبي ابن جرو وكل خره وابن كل الهك النضيف وضيف  
٤٣- وابن فسا الثيران وابن خرا الحسه وقلوط الزبلة وابن كنيف  
٤٤- واختم قصيدى بالصلاة على النبي نبي عربى مكى شريف عفيف

...

وواضح من هذا القسم أن الشاعر الشعبي عبر عما يمانيه أبناء طبقة من الحرمان والفاقة ، فدارت بخلطه أمنيات ، تمنى أن يحققها بذهابه إلى المدينة ، لعله يتمكن من إشباع نهمه بالأملاكولات التي حرم منها ، حتى ولو كلفه ذلك ، ارتكاب جريمة السرقة فترجم بذلك عن ذات نفسه ونفس أبناء طبقة بشمره هذا .

...

من العرض السابق لجزئى كتاب هن القحوف ، يتضح لنا أن الكتاب على جانب كبير من الأهمية لدراسة تاريخ مصر فى العصر العثماني لأموور عدة :

(\*) يقصد ثمنه .

أولاً : إن القضية الأولى والمهمة التي يثيرها الكتاب ، وتشكل عموده الفقري هي قضية الفلاح وحاله في العصر العثماني لأمالوكي ، فإذا كان بطل الكتاب الأول الشاعر الشعبي أبو شادوف ، قد نظم قصيدته ، مبيّناً لنا سوء الحال التي عانى منها الفلاح ، والظلم الذي وقع عليه في ذلك العصر ، فإن الانصاف يستدعي أن نذكر أن الشيخ يوسف الشريفي ، قد أضاف بشرحه للقسيمة الأمور إيضاحاً ، كما ظهر لنا من النصوص التي ذكرناها ، وأوضح بأسلوبه أن هذه من أمور الظلم التي حلت بالفلاح في ذلك العصر .

ثانياً : أوضح الكتاب في جزئه الأول ، مسدى سيطرة الطرق الصوفية على سكان الريف وترك لنا بصمات تدل على أنه إذا كان قد وقع على الفلاح مكربها ، ظلم الإدارة نتيجة للأعباء التي أصبح يتن منها ، فإنه عن طواعية واختيار أضاف عبء العادات التي كان يتطلبها وقوعه تحت سلطان الطرق الصوفية وقد سبقت الإغارة إلى ذلك .

ثالثاً : يمد الكتاب مرجعاً وافياً لدراسة العادات والتقاليد الريفية والحضرية التي كانت سائدة في مصر في القرن السابع عشر الميلادي ، والتي مازال بعضها حياً في كثير من قرانا ومدننا ، ولذا فإن الكتاب يصبح مصدراً وثائقياً هاماً لدراسة المجتمع المصري في تلك الفترة ، بل والفترة السابقة لأن الشارح كثير الاستطراد في أسلوبه ، فكثيراً ما يتتبع نشأة هذه المادة أو غيرها عن طريق سرد الكثير من القصص والحكايات .

رابعاً : في الكتاب جانب طي هام حيث أن الشيخ الشريفي في أثناء شرحه

يسرد كثيراً من الحكايات عن فوائد بعض الأطعمة الطبيعية ، والأغراض التي  
تستعمل فيها ، وكيف يستعملها الفلاحون ، ورغم أن الكتاب يمد موسوعة في هذه  
الفروع ، ورغم استطراد الشريفي من موضوع إلى موضوع والخروج من حكاية  
إلى حكاية ، فإن كل هذه الأمور لا تمنع عن الدين القضية الأولى والمهمة التي  
يعالجها الكتاب وهي قضية الفلاح . فالكتاب مصدر جدير بالاهتمام .



نقد الكتب

